أدب الحـــــرب

لؤي حمزة عباس

في ختام دراسته لرواية (أطراس الكلام) المنشورة في مجلة (الأقلام) (العدد ٢ - ٣ السنة ٣٩) يقول الناقد الدكتور شجاع العاني (عندما نقرأ كلمات بطل همنغواي (بطل وداعاً للسلاح)، نشعر بفقر الأدب العراقي، في مناقشته لقضية الحرب ومآسيها التي عاشها شعبنا منذ بدايات الثمانينيات، ولعل الأيام والسنوات القادمة ستسفر عن أدب للحرب، حقيقي، وصادق، ورفيع يرتفع إلى مصاف أدب الحرب الذي عرفته شعوب ولغات قومية أخرى عاشت وعرفت مأساة الحرب)، وهو يلخص بمقولته واحدة من مشكلات نصنا السردي الذي كتب تحت بند (أدب الحرب)، وهو أدب سيكون له من العمر، بعد سنة واحدة، ربع قرن من الزمان، إذا ما فكرنا بحروبنا التي بدأت ولم تنته، تغيرت فصولها واختلفت مسمياتها ولم يغب شبحها بظله القاتم عن تفاصيل حياتنا (يقول محمود البريكان: والحرب حين ترذلت بردت وعاشت في السلام).

أما إذا حاولنا تأمل المشكلة على نحو أوسع ونحن ننتقل بها انتقالتين جغرافية وفنية، فسنلاحظ في الأولى ما ينطوي عليه النص السردي العربي، قصة كان أو رواية، من مشكلات مماثلة يغيب معها الحقيقي، والصادق، والرفيع، ونلاحظ في الثانية ما يعتمل داخل هذا النص، والنص العراقي جزء منه، من إشكالات تقنية (يمكن أن تضيء جانباً منها مقاله غالب هلسا: الدبابة حصان والعدو جبان، المنشورة في كتابه (فصول في النقد) فضلاً عن أن المشكلة ستبدو أطول عمراً وأرسخ حضوراً في الذهن العربي وهو يعيش ازدواجيته القاهرة مواجهاً ظواهر العصر المتقدمة، ومنها أساليب الحروب الحديثة وتقنياتها، بمستوى أقل بكثير مما كان يواجه به الجبرتي ظواهر عصره، بجملة هلسا، الأمر الذي سيجد مصداقه في الكثير من نصوصنا الحربية وقد وضعت نصب عنايتها تصحيح أخطاء المشهد السياسي وإضاءة جوانبه المعتمة عبر حرف وتغيير نتائجه الحياتية الجسيمة، مؤكدة تبعية الأدب للسياسة ودونيته أمامها، من دون أن تدرك هي الأخرى حجم ما اقترفته من أخطاء، فلم تكن تنظر، في تصديها لموضوعة الحرب، لحرب الإنسان: في إقدامه واندحاره، في نبله ووضاعته، في ضعفه وقوته، بل عملت على أن تطيل النظر لحربها هي، حرب المؤسسات التي لم تفقر الأدب وحده بل جففت الكثير من منابع الإبداع.

ولكننا إذا ما تأملنا مقوله الأستاذ الدكتور شجاع العاني على نحو أكثر دقة سنسجل ملاحظتين، تتوجه الأولى لصعوبة المقارنة، وربما استحالتها، بين ما أنتجه همنغواي في موضوعة الحرب وما أنتج من أدب عراقي في الموضوعة نفسها، مع معاينة شرط الحرية فكراً وممارسة، وقد منح همنغواي عبر انفتاح أفق حريته مساحة دونما حدود، أصبحت التجربة الإنسانية على اختلاف مواقعها ميدانه الأوسع، في حين وجد الأديب العراقي نفسه أسير ممارسة عكسية، كلما انفتح فيها أفق الحرب واتسعت مساحتها ضاقت فسحة حريته وغاب تصوره الشخصي أو اضمحل (هل من فسحة حرية فردية حقاً، وهل من تصور شخصي؟).

لم يكن همنغواي يستجيب وهو يحفر عميقاً في جسد الحرب بمبضعه القصصي لإرادة رسمية، ولم ينصت لصوت غير صوت أعماقه، لقد عاش الحرب بوصفها فعلاً بشرياً بالدرجة الأساس حمل على عاتقه مهمة تفحصه والالتحام به بما يتماشى مع طبيعته وسلوكه الشخصيين، على العكس من معظم قصاصينا الذين كتبوا عن الحرب من دون فهم أو استعداد فكانوا كمن وقع في بئر، لم يروا من السماء الفسيحة إلا بمقدار ما تسمح به الفوهة الضيقة.

لعل عامل الحرية هو ما عناه الأستاذ الدكتور في ترجيه للقادم الأدبي، وتوقعه الممكن في أن تسفر الأيام والسنوات القادمة عن أدب للحرب، حقيقي، وصادق، ورفيع.

أما الملاحظة الثانية فتتوجه لإضاءة ركن لا يزال شبه معتم في ممارستنا النقدية وهي تنظر لأدب الحرب العراقي بوصفه أدباً واحداً استجاب في مجمله لإرادة السلطة وجسد معطياتها، وهو، بلا شك، أدب غزير أنتج في مجمله على امتداد ثلاث حروب مهلكة، امتدت إحداها ثماني سنوات وما زالت تبعاتها تعتمل في حياتنا حتى اليوم، على الرغم من إعلان توقفها الرسمي منذ ستة عشر عاماً، وهي النظرة التي تجمع الكثير من نصوصنا النقدية سواء المكتوبة منها داخل العراق أو خارجه (لنتذكر، إلى جانب الدراسات المنجزة في الداخل، ما كتبه سلام عبود في كتابه: ثقافة العنف في العراق، الصادر عن دار الجمل ٢٠٠٢)، لكن نظرة فاحصة متأنية يمكن أن تؤكد خلاف ذلك، فلم يكن أدب الحرب في العراق أدباً أسهمت السلطة برعايته وتوجيه خطواته، فقد (ظهر تيار أدبي/ فني يستخدم التورية والرمز وتقنيات أدبية مختلفة مستفيداً من إمكانات اللغة الأدبية في إشاعة أدب مقاوم، اتسعت قاعدته في التسعينيات في القصة القصيرة والشعر والرواية) حسب تعبير الأستاذ جميل الشبيبي في دراسته لكتاب سلام عبود سابق الذكر (جريدة (المنارة) العدد ٤٤ كانون أول ٢٠٠٣)، وإذا كنا نتطلع مع أستاذنا العاني لقادم منجز الأدب العراقي وهو يستثمر مساحة حريته في القصة وسواها من فنون الإبداع، فإن علينا أن نعيد قراءة ما أنجز بالفعل مشحوناً بقدرته على الاحتجاج، تلك القدرة التي أغنت النصوص، على قلتها وتفرقها، ومنحتها حضوراً خلاقاً، وهي ليست بالمهمة اليسيرة، لكنها واحدة من مهام النقد الأساسية في المواجهة والمعاينة والاكتشاف.

سمير نقاش الروائي والمسرحي العراقي الأصل:

لست محسوبا على الكتاب العبريين ولا على الكتاب العرب لا أستطيع التعبير عن نفسي إلا بالعربية..

هاجرت عائلة سمير نقاش الى اسرائيل حين كان في الثالثة عشرة من عمره، لكنه، كما يقول في هذا الحوار معه لم يستطع أو لم يرد الاندماج في المجتمع الجديد.

ومن أبرز مظاهر هذا الرفض حفاظه على اللغة العربية التي كتب بها جميع رواياته ومسرحياته.

وفي هذا الحوار يتحدث نقاش عن تجربته الروائية والمسرحية التي لم تصل الى القارئ العربي، رغم انها مترجمة الى لغات اجنبية عديدة، وعن واقع الأدب المكتوب بالعربية في اسرائيل.

★ تعيش في اسرائيل منذ الثالثة عشرة من عمرك. لماذا قررت الآن، بعد خمسين سنة، مغادرة اسرائيل؟ أهو رفض للمشهد السياسي الحالي أم البحث عن انعطافة جديدة في أدبك؟

ـ قرار مغادرة اسرائيل ليس فجائياً، ولا علاقة له بالسياسة ولا بالأدب. انه قرار قديم منذ وطأت اقدامنا أرض اسرائيل، قررت العائلة مغادرتها. وبذل والدي مجهوداً جباراً مع مجموعة من مثقفي العراق للخروج، بيد ان اسرائيل أحبطت كل هذه المحاولات، ولم يصمد والدي أمام هذه الصدمة، فمات مبكراً عام ١٩٥٣ اثر نزيف في الدماغ. وبعد عام من ذلك، اجتزنا الحدود انا وابن عم لي، الى لبنان. لكن اللبنانيين اعتقلونا مدة ستة أشهر واعادونا الى اسرائيل، حيث سجنت خمسة أشهر وتعرضت لتعذيب شديد بتهمة الجاسوسية. وفي ١٩٥٨، حاولت ان أجد منفذاً جديداً، فذهبت الى تركيا وايران فالهند، ثم الى ايران ثانية حيث بقيت أربع سنوات. لكنني اضطررت للعودة الى اسرائيل، وبعد ابرام معاهدة السلام مع مصر، حاولت الانتقال اليها، دون جدوى، وكذلك الأمر مع المغرب الذي استقبل فقط مواطنيه اليهود. وهاأنذا، أخيراً، في بريطانيا رغم تحفظي على الغرب عموماً، وكنت أتمنى ان استقر في أي بلد عربي.

★ كتبت كل رواياتك بالعربية.. كيف استطعت المحافظة على سلامة اللغة وانت تعيش وسط محيط عبري لغة وثقافة؟

ـ العربية هي لغتي ولا أعرف من اللغات سواها، وقد ذكرت قبل قليل كلمة «قوقعتي» فأنا كنت اعيش في اسرائيل منذ اول لحظة داخل هذه القوقعة، لم أتأثر بالثقافة الغربية السائدة في اسرائيل ولم أجد لغتها حتى الان، وحتى لو حاولت الكتابة بالعبرية كما فعل شمعون بلاص وسامي ميخائيل وغيرهما لما استطعت، لقد وصلت اسرائيل وانا في الثالثة عشرة، عراقياً غريباً وتركتها بعد خمسين عاماً كما تركها أبي عربياً قحاً. وحتى لو اضطررت الى العودة اليها فسأظل هذا العراقي العربي المخلص للغته وتراثه.

★ هل تشعر انك أمام مأزق لغوي، تكتب بالعربية لقارئ لا تصل اليه كتاباتك، وقد لا يقرأك مثقفون عرب لسبب آيديولوجي، اضافة الى الاسرائيليين؟

ـ سأشعر بمأزق لو حاولت الكتابة بلغة غير العربية، فالعربية ليست لغتي وحسب بل هي من أقوى وسائل تعبيري، ولا أخشى الكتابة بالعربية، كما خشي ذلك البعض فانتقل للكتابة بالعبرية، ان أدبي يصل الى كل مكان بما في ذلك الكثير من الدول العربية، إذ اقرأ في الصحف العربية وأسمع في التلفزيونات العربية اقتباسات من أدبي. ومن أناس لا أعرفهم ودرّس ادبي ويُدرّس في ٣ جامعات اسرائيلية وجامعة مصرية واحدة في الأقل، وأخبرني باحث ادبي مصري بأن ابحاث دكتوراه وماجستير حول ادبي قد سجلت في هذه الجامعة التي يحاضر هو بها. وتكتب عن أدبي اطروحات الماجستير في شتى انحاء العالم فضلاً عن اسرائيل، وقبل مغادرتي مباشرة، زارني اثنان من طلاب الدكتوراه، يريدان تناول أدبي في ما يكتبانه، احدهما اسرائيلي والآخر الماني، وسبق ان كتب طالب الماني رسالة ماجستير حول أدبي وأرسل لي نسخة منها، كما أرسلت لي طالبة ايطالية نسخة من اطروحة أهلتها لأن تصبح دكتورة، وأطروحتها حول ادبي، والاطروحتان بالألمانية والايطالية، ولذا لم اقرأهما بعد، وبالطبع كتب الكثير من هذه الأطروحات وتكتب حالياً، في انجلترا، والسويد، وأميركا، وهولندا، وبعض الدول العربية، كما يذكرني مستشرقون كثيرون ويزورونني في بيتي.

★ يشعر القارئ احياناً بصعوبة الدخول الى عالمك الروائي، وقد يكون ذلك راجعاً الى محاولتك توثيق ذكرياتك، وماضيك وتجاربك أدبياً دون ان توفر مفاتيح كافية لدخول عالمك.. هل تتفق مع هذا الرأي؟

ـ لم أسمع بمثل هذا الرأي من قبل، لا من نقادي ولا من باحثي أدبي سواء كانوا من العبريين او العرب او الأوروبيين او الأميركان. وهناك لقطتان غريبتان عليّ، الأولى هي التوثيق في الأدب، لأن الأدب لا يمكن ان يكون توثيقاً كما ان التوثيق لا يمكن ان يكون أدباً. ومن يحاول استخدام الأدب او الاقتباس فيه كوثيقة مخطئ كل الخطأ. لأن الأدب خلق وابداع وليس تسجيلا لحقائق جافة، اما النقطة الثانية فهي «محاولتي تسجيل ذكرياتي وماضيّ». نعم، ما من أديب لم يدخل في أدبه شيئاً او أشياء من سيرته الذاتية، لكن ادبي، حتى الآن لا يشتمل حتى على عشرة في المائة من الموتيفات الذاتية، ويمكنني ان أشير اليها كلها، كما في رواية «الرجس» وقصص «طنطل» و«انا وهؤلاء والفصام» من المجموعة التي تحمل هذا الاسم، وقصة «ليلة عرابا» من مجموعة (يوم حبلت وأجهضت الدنيا). أما صعوبة أدبي ـ كما يشكو من ذلك البعض ـ فربما نجمت عن تقنياتي التجريبية كامتزاج الأزمنة من ماض وحاضر وحتى المستقبل وتداخل الأحداث ومشاركة شخصيتين او اكثر في رواية الأحداث، وحتى بسبب المضامين ذاتها كمضامين مسرحياتي وبعض قصصي.

★ تستخدم لهجات متعددة في رواياتك ألا يزيد ذلك من المأزق اللغوي الذي تحدثنا عنه، وتشتيت القارئ؟

ـ ربما يزيد ذلك من «صعوبة» قراءة انتاجي، اما المأزق اللغوي فقد اثبت لك عدم وجوده في الرد السابق، ومع ذلك فقد اعتدت تفسير او ترجمة هذه اللهجات في الهوامش. اني استخدم هذه اللهجات في أعمالي «العراقية» فقط، وانا اعتقد ان الفصحى في مثل هذه الروايات هي تصنع وكذب على القارئ، لقد كتب ويكتب باللهجات العامية، كبار أدباء العربية، كيوسف ادريس الذي استخدم اللهجات المصرية والطيب صالح الذي كتب بالسودانية، ولم يشك من هذا احد، كما ان هذه اللهجات لم تنل من قيمة الأعمال العظيمة التي كتبت بها. اما اللهجات العراقية التي استعملها فيخيل لي ان اليهودية البغدادية قريبة من لهجة الموصل واللهجات السورية وغيرها فضلاً عن انها لغة أهل بغداد الأصلية وانها قريبة من الفصحى، اما «اللهجة الاسلامية البغدادية» فقريبة من لهجات البدو، في الكويت والبحرين والخليج والسعودية، ومهما يكن من امر فان من يريد قراءة أدب من هذا القبيل، يقرأه ويفهمه حتماً، ان الألماني الذي كتب أطروحته عن أدبي، قرأ ضمناً اكثر اعمالي ايغالاً بهذه اللهجات. وفضلاً عن ذلك فقد نشر بعض قصصي بعدة لغات اوروبية منها السويدية، ويؤمل ان تصدر روايتي «نزولة وخيط الشيطان» بالانجليزية بأميركا، فضلاً عن مجموعة قصصية تعد هي الأخرى للنشر قريباً. فهل انا في مأزق لغوي حقاً؟

★ من هو سمير النقاش.. كاتب عراقي يعيش في اسرائيل، أم كاتب اسرائيلي من أصل عراقي؟

ـ هل يمكن لأحد ان يخرج من جلده؟ انا كانسان، عراقي أصيل بكل جوارحي، احمل بجنباتي تاريخاً شديد القدم من العراقية، تكويني كله عراقي، لغتي، عاداتي، الطعام الذي أحبه، الموسيقا التي أفضلها، الأناس الذين أرتاح اليهم، كل ذلك عراقي بحت. اما ككاتب فأعتقد ان على كل كاتب ان يطمح الى الشمولية الانسانية والعالمية، ان عالمية نجيب محفوظ مثلاً ترجع الى أدبه الانساني العالمي، ورغم ان بعض اعماله موغلة في المحلية والشعبية المصرية فانها ترمز في حقيقة الأمر الى قضايا انسانية شمولية بحتة، لكن الأديب ينهل من بيئته وليس من المريخ «وهذا ما يجعله احياناً» يرضخ لما يطلق عليه من التسميات «ككاتب عراقي» او «اسرائيلي» او ما أشبه، اني أحاول في كتاباتي ان اكون كاتباً انسانياً شمولياً لكنني اكتب عن البيئة التي اعرفها.

★ هل يمكن ان تحدثنا قليلاً عن وضعية الأديب العربي داخل اسرائيل، والصعوبات التي يعانيها، كتابة ونشراً واجتماعياً وثقافياً؟

ـ الكتاب الفلسطينيون داخل اسرائيل يتمتعون بمساندة وزارة المعارف والثقافة، ويفخر موفق خوري مدير القسم العربي في الوزارة بأنه يصدر سنوياً نحو مائة كتاب في الشعر والنثر للفلسطينيين «الاسرائيليين» وانه يشتري منهم معظم النسخ لتوزيعها على المكتبات العامة والمدرسية، وتقدم لهم الوزارة المنح والمخصصات كما تقدم لسبعة الى عشرة منهم جوائز تفرغ سنوية تعادل مرتب معلم عال. أما النسخ المتبقية لدى الشاعر او الكاتب فتباع في المدن والقرى الفلسطينية داخل اسرائيل وفي الضفة والقطاع وأحياناً في بعض الدول العربية كذلك، ولا توجد رقابة على طباعة الكتب، وفي النادر يُمنع كتاب معين بعد صدوره بسبب مسّه «بأمن الدولة» اما القدح او الشتم والسب والاتجاهات والميول السياسية فمسموح بها. وهناك رابطة خاصة بالكتاب العرب، كما أنشئت قبل اعوام رابطة لأدباء اسرائيل من اليهود والعرب، وهذه الرابطة يسارية النزعة. وهناك نشاطات ادبية ـ شعرية عربية تجري في المدن والقرى العربية داخل اسرائيل، كما يتضمن «اسبوع الكتاب العربي» المقام سنوياً بحيفا وبعدد من المدن العربية الأخرى في اسرائيل، فعاليات عديدة ويشارك فيه عدد من الممثلين تعدت شهرتهم حدود اسرائيل ومناطق الحكم الذاتي الفلسطيني. وكما يعرف الجميع حاز الأديب الراحل اميل حبيبي «جائزة اسرائيل» للأدب وهي اكبر جائزة اسرائيلية يكرم بها العلماء والأدباء وغيرهم، وهي بمثابة جائزة نوبل الاسرائيلية. المتاعب الحقيقية التي يعاني منها كاتب او شاعر في اسرائيل هو اليهودي العراقي الذي يكتب بالعربية، إذ لا يعترف به احد فلا هو معدود على الكتاب العبريين ولا هو معدود على الكتاب العرب، ومن هنا حرمانه من كل المخصصات والجوائز ومساندة النشر حكومياً الى غير ذلك من حقوق الأديب.

بيـــت على نهـــر دجلـــة

مهدي عيسى الصقر

الحلقة الرابعة

-٣-

انزلق الضوء الاصفر الرجراج على الارض، وتراقص على الجدران، وتمددت ظلال اصابع المروحة على السقف، وحين أوصدت عليه الباب وذهبت أطبقت عليه العتمة، بقي وحده على السرير، بعد ان حل الفراغ في المكان الذي كانت تنام فيه، قبل لحظات، مد يده يتحسس مكانها الخالي في الفراش فشعر بالدفء الذي خلفه جسدها وراءه، يسري في لحم يده، ترك راحته تتجول فوق مساحة الدفء الذي كان يتبدد شيئاً فشيئاً، كان مثل دخيل يحوم حول بستان محوم، في غفلة من العيون، جسدها لايزال فتيا، برغم الشيب الذي زحف على خصلات من شعرها الاسود، والذي ترفض ان تصبغة، كما تفعل من في سنها (ليس الان ، ليس الان) ام نادرة هذه العذراء، التي لم تمس، الا انها لم تتعلم بعد كيف تكون زوجة، ولكن كيف رضي هو بشرطها الغريب!؟ شرطها المنافي لقانون الناس والطبيعة!؟ برد الفراش أخيرا فسحب يده. نفض عن جسده الغطاء، وجلس في السرير، وسط الظلمة والصمت. تحسس بيده سطح الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير فاصطدمت اصابعه بقاعدة المصباح المنضدي، الذي لا تيار فيه، ثم عثرت على علبة سيجائره. بعد ذلك أخرج علبه الثقاب المخبأ، واشعل عودا فاشتعل وجهه في مرآة الزينة، رآه هزيلا ومرهقا، أوقد طرف سيجارته وأطفأ العود فانطفأ وجهه في المرآة اخفى علبة الثقاب، وغادر السرير، مشى صوب النافذة، أزاح جانبا من الستارة فتدفق الهواء القادم من وجهة النهر، وغمر وجهه وصدره، وبدد دخان سيجارته، أحس بالهواء يهب معتدلا مع شيء من البرودة، ورأى الليل في الخارج شديد السواد، والجانب الآخر من المدينة، فيما وراء النهر، ليس سوى مجموعة من جدران قاتمة، بارتفاعات مختلفة، تتخللها ملامح أشجار سود، تقف في أماكنها، بلا حراك، مثل نصب الموتى، على يسار النافذة لاح قوس الجسر الحديدي، بقوائمه واضلاعه المتقاطعة، يطفو في الهواء المعتم، فوق مجرى النهر وسط ما يشبه الضباب، كأن طرفه البعيد لا يلامس الارض بل يتلاشى في الفراغ، في حين بدا نهر دجلة مثل خندق عريض يجري فيه سائل لا يرى لاندماجه بسواد الليل، والسماء مكفهرة تغطيها السحب، أو لعل ما يغطيها هو دخان حرائق هائلة، تحمله الريح من اماكن بعيدة وتنشره فوق سطوح المنازل وجدران العمارات وبساتين النخيل والشوارع والدروب المقفرة، وليس هناك نجمة واحدة! السماء مغلقة، والمدينة —بأطرافها المترامية في كل جانب —خامدة تماما، مثل مدينة أثرية مات أهلها منذ زمان بعيد، ولم يتبق فيها غير هياكل عظمية، مدفونة تحت أنقاض الجدران والسقوف المنهارة. ظل يقف في مكانه، أمام النافذة المطلة على النهر والليل، يدخن في شرود وينتظر عودتها، قاربت سيجارته أن تحترق كلها حين سمع صوت الباب ينفتح وراء ظهره، التفت ليراها تغلق الباب، وتتقدم يسبقها ضوء الفانوس الذي راح يتأرجح على البساط، وعلى الجدران وقطع الأثاث، رأى الضوء ينير ثوب نومها الأبيض الطويل، وبدت إحناءات فخذيها المتحركين بجوار الضوء أكثر تحديدا، بسبب تراكم الظلال بين ساقيها وهي تمشي، أعادت الفانوس الى مكانه فجمدت الظلال وسكنت بقع الضوء، وجاءت بعد ذلك ووقفت بجواره عند النافذة، نظر الى وجهها:

(كيف هو الآن!؟)

(أقنعته بدخول المرافق، رفض في البداية، قال انه لا يريد أن يأخذ دور أسير آخر، فقلت له انهم دخلوا قبله، وانصرفوا ليناموا، فوافق عندئذ، بعد ذلك أخذته الى فراشه،)

(وهل غفا؟)

(لا أدري. رأيته يغمض عينيه، ولم أشأ ان اعطيه قرصاً مهدئاً آخر، فهذه الاقراص تسبب له وجعا في الرأس!)

وقفا صامتين ثم تنحى بجسده قليلا، من أجل ان يفسح لها المجال لترى الخارج جيدا.

(انظري الى المدينة.. كيف غدت!)

لم تقل شيئا. وقفت تنظر أمامها واجمة. رفع يده ليأخذ نفسا أخيرا من سيجارته فمس ساعده، بدون قصد، حافة نهدها، الذي ارتج قليلا. جفلت ونأت بجسدها عنه سريعا. لم يتكلم، إنما نفخ دخان سيجارته، فيما يشبه تنهيدة طويلة، قالت بصوت مكسور:

(ماجد، أنا آسفة! أنت تزوجت امرأة لا وقت عندها للفرح!)

قال لها:

(سوف أصبر حتى يشفى أخوك.)

(أتظنة يشفى حقا!؟)

(نحن نفعل ما بوسعنا)

ترك مصراع النافذة مفتوحا، غير أنه أغلق الستارة، قادها من يدها الى الفراش. افترقا عند بلوغهما السرير. ذهب هو صوب جانبه من الفراش. أطفأ عقب سيجارته في المنفضة على الطاولة في حين مشت هي الى الجانب الاخر. أنزلت ذبالة الفانوس، وصعدا الى السرير، في بقايا الضوء الخافت.

-٤-

جلسا بين صفوف المرضى. هي كانت تنتظر، هو ماكان ينتظر شيئا. قالت له نذهب الى الطبيب فأطاعها هو يطيعها دائما حتى لا تزعل عليه ولكن ماذا تقول تلك الرقعة!؟

(وجدت عدد المرضى كبيرا، بعضهم جاء لمراجعة زوجة الطبيب، الأختصاصية بالمجاري البولية. رأيت ابني يحدق باهتمام الى الرقعة فوق باب الطبيبة، ثم استدار بوجهه وسألني: هل عندهم هنا أدوات احتياطية.. ماذا تقصد ياولدي!؟ أقصد أعضاء تناسلية لم تستعمل، مثانات جديدة.. أنا أحتاج مثانة! نظرت محرجة الى وجوه المرضى القريبين. سألتني امرأة عريضة، كانت تجلس بجواري، وجهها المترقب يبتسم:

(هذا زوجك؟)

نظرت اليها في انزعاج، وقلت لها انه ابني. قالت مندهشة:

(كبير ماشاء الله! هل عندك غيره؟)

بقيت صامته، غير ان المرأة لم تشأ أن تصمت.

(عندك أولاد غيره، الله يخليه؟)

قلت لها إن عندي ابنا آخر.

(أصغر طبعا.)

(لا، أكبر!)

هتفت غير مصدقة:

(مستحيل! أنت تمزحين أكيد! كم عمرك الآن؟)

قلت لها وأنا أنظر في عينيها:

(أنا دخلت القرن الرابع من العمر قبل أشهر!)

تأملتني المرأة بارتياب ثم سارعت بالنهوض، فأمسكت ذراعها:

(لحظة واحدة، قبل أن تنصرفي! عندك أنت أولاد؟)

(عندي أربعة.)

تمتمت المرأة خائفة وهي تحاول أن تخلص ذراعها من قبضتي. قلت لها:

(إذن اسمعي نصيحتي! أعيديهم الى رحمك فورا، وأغلقيه عليهم بالشمع الأحمر، ولا تدعي أحدا منهم يخرج.. ليس الآن!)

بعد ان نصحتها أطلقت ذراعها فسارعت بالابتعاد. البلهاء ظنتني مجنونة، أحسن، فالتظاهر بالجنون هو خير وسيلة لدفع الأذى، في هذا الزمن، وخطرت على بالي فكرة بعثت شيئا من الامل في نفسي. أتراه يتظاهر بالجنون، من أجل يحمي نفسه!؟ التفت أنظر اليه، وجدت في عينيه رجاء، سألته ان كان يريد شيئا. قال : أريد ان اختبيء! أختبيء!؟ نعم. أدخليني الى رحمك! طلبت منه السكوت. تضرع لي بصوت خفيض: خبئيني داخل رحمك وأقفليه علي بالشمع الأحمر! وددت لو كان بمقدور النساء ان يعدن أبناءهن الى ارحامهن في ساعات الخطر! نظرت الى وجهه المتضرع مخذولة لا فائدة الآن لافائدة حتى اذا كان ذلك ممكنا! أرغمت نفسي على الابتسام قلت له أنت رجل والرجال لا يختبئون! أنظر الى الدنيا ياولدي وسوف تجد..! سألني:

(ماذا أجد ياأمي!؟)

(السيد سعيد المطلوب!)

ارتفع صوت السكرتير ينادي فوق الوجوه القانطة، بعد ان خرج أحد المرضى من غرفة الطبيب. (فأمسكت بذراع ابني استحثه على النهوض:

لندخل! جاء دورنا الآن!).

رحل مؤخراً تاركاً إرثاً ابداعياً كبيراً

سمير نقاش: إسرائيل ليست بلدي.. أنا عراقي

علاء المفرجي

أول محاولة له للهروب من المجتمع الإسرائيلي الذي لم يستطع الاندماج فيه، بعد ان فرض عليه ما عرف بـ(قانون ضغط الجنسية) الذي أصدرته حكومة توفيق السويدي عام ١٩٥٠ ، كانت عبر الحدود اللبنانية حيث قبض عليه وأعيد إلى إسرائيل.. ثم محاولته الاستقرار في إيران التي فشلت هي الأخرى، ثم إلى الهند التي لم يكتب لها النجاح أكثر من عام..

هذه المحاولات اضطرت الكاتب اليهودي العراقي سمير نقاش الذي رحل اخيراً عن ٦٦ عاماً إلى الاستقرار في مجتمع لم يستطع التأقلم معه والاستقرار فيه، فبقي حتى نهاية حياته يعيش متنقلاً بين إسرائيل وبريطانيا.

جاء سمير نقاش إلى إسرائيل عام ١٩٥١ في سن الثالثة عشرة، وعاش فيها حياة مضطربة شكلت مادة لمواضيع اعماله الروائية والقصصية والمسرحية الكثيرة وعرف عنه خلافاً لكثير من الكتاب اليهود العراقيين إصراره على الكتابة باللغة العربية، واستخدامه اللهجة العراقية، حتى في أعماله التي تجري احداثها في إسرائيل أو في البلدان التي غادر إليها..

بل أنه في معظم رواياته وقصصه كان يحرص على كتابة عبارة (قصص عراقية) أو (رواية عراقية).

ولعل ابرز ما كتبه الروائي الراحل كانت تلك الاعمال التي تتحدث عن العراق والتي تتجلى فيها الحياة البغدادية في أوضح صورها، خاصة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي واختار الشخصيات الروائية التي تعكس تنوع المجتمع العراقي القومي والديني والمذهبي في تلك الفترة.

(اني يهودي لكني لست بخائن.. كيف أخون أرضاً ممتزجاً بثراها رفات آبائي وأجدادي؟).. هذه الكلمات جزء من مونولوج داخلي ليعقوب بن عمام البطل اليهودي في واحدة من أهم روايات نقاش (نزولة ومخطان الشيطان)، والتي تشكل انعكاساً لما يجول في نفس الكاتب الذي لم يألف مجتمعاً فرض عليه العيش فيه قسراً.

في رسالة منه إلى الكاتبة العراقية انعام كجة جي تحدث سمير نقاش عن سيرته الذاتية قائلاً: (كان جدي، والد أبي، صائغاً يتقن النقش الفني على أدراج اسفار التوراة الفضية، ويقال أيضاً انه نقش منائر الكاظمية السبع كانت أسرته يهودية بغدادية عريقة تنحدر إلى بداية الخلافة العباسية، وهي اسرة آل شهيد، لكن حرفته غلبت لقبه فكان يسمى (موشي النقاش) حتى غلب علينا هذا الصيت.

ولدت في بيت (الحجي ساهي) في البتاويين، بين القصر الأبيض وساحة النصر ولما بلغت السنتين انتقلنا إلى بيت على الشط، يقع في ظهر كازينو (ليالي بغداد) واذكر انتقالنا وما بعد بشكل عجيب، وفي هذا البيت وقع الفرهود وقام بحراستنا بيت آل قروجي الذين سكنوا بجوار البيت. وخلال الحرب العالمية الثانية بنينا بيتاً في السعدون، على أرض السباق القديم، وكانت تحيط به القصور الغناء، بيوت رؤساء وزارات ووزراء وأطباء).

في شهادته التي سجلها المخرج السينمائي العراقي سمير عبد الحميد في فيلمه الوثائقي (إنس بغداد) عن المثقفين اليهود العراقيين، كرر سمير ما كان يقول على الدوام (إسرائيل ليست بلدي).

خلال أكثر من ثلاثة عقود من الإبداع كتب الروائي سمير نقاش عدداً كبيراً من الاعمال الروائية والقصصية والمسرحية منها (الخطأ) قصص ١٩٧٢ (حكاية كل زمان ومكان) قصص ١٩٧٨، (أنا وهؤلاء والفصام) قصص ١٩٧٨ (الجنوح والانسياب) مسرحيات ١٩٧٩ (يوم حبلت واجهضت الدنيا) رواية ١٩٨٠ (في غيابه) مسرحية ١٩٨١، (عندما تسقط اضواء المثلثات) قصة، (نزولة ومخطان الشيطان) رواية ١٩٨٦، (النرجس)رواية ١٩٨٧، (فوهة بدم) رواية ١٩٨٧ (المقرورون) مسرحية ١٩٩٠، (نبوءات رجل مجنون في مدينة ملعونة) قصص. وكانت آخر رواية صدرت للراحل عن دار الجملة قبل اشهر هي (شلو مو الكروي وانا والزمن).